م . الخطبة الشقشقيّة

ابن مردويه ، عن سليمان بن أحمد الطبراني ، أخبرنا أحمد بن عليّ الأبّار ، أخبرنا إسحاق بن سعيد أبو سلمة الدمشقي ، أخبرنا خليد بن دعلج ، عن عطا بن أبي رباح ، عن ابن عباس:

كنّا مع عليّ عليه السلام بالرحبة ، فجرى ذكر الخلافة ومن تقدم عليه فيها ، فقال : أما والله ، لقد تقمّصها فلان ، وإنّه ليعلم أن محلّي منها محلُّ القطب من الرحا ، ينحدر عنّي السيل ، ولايرقى إليَّ الطير . فسدلت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ، وطفقت أرتأي بين أن أصول بيدٍ جذّاء ، أو أصبر على طَخيةٍ عمياء ، يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير ، ويكدح فيها مؤمن حتّى يلقى ربّه .
فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى ، فصبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا ، أرى تراثي نهبا ، حتّى مضى الأوّل لسبيله فأدلى بها إلى فلانٍ بعده .

شتّان ما يومي على كورهاويوم حيّان أخي جابر
فياعجبا ! بينا هو يستقيلها في حياته إذْ عقدها لآخرٍ بعد وفاته ، لشدّ ماتشطّرا ضرعيها ، فصيّرها في حوزةٍ خشناء ، يغلُظ كَلْمُها ، ويخشُنُ مَسُّها ، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها ، فصاحبها كراكب الصَّعبةِ ، إن أشنقَ لها خَرَمَ ، وإنْ أسلس لها تَقَحَّم . فَمُنيَ الناس لعمر الله بخبطٍ وشماسٍ ، وتلوّن واعتراضٍ .
فصبرت على طول المدّة ، وشدة المحنة ، حتّى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعةٍ زعم أنّي أحدهم . فيالله وللشورى ! متى اعترض الريب فيَّ مع الأوّل منهم حتّى صرتُ أقرَن إلى هذه النظائر ! لكنّني أسففت إذ أسفوا ، وطِرتُ إذ طاروا . فصغا رجل منهم لِضغنه ، ومال الآخر لصهره ، مع هنٍ وهنٍ . إلى أن قام ثالث القوم نافجا حِضنيّه بين نَثيلِهِ ومعتلفه ، وقام معه بنو أبيه يخضمون

مال الله خضم الإبل نبتة الربيع ، إلى أن انتكث فَتلُهُ ، وأجهز عليه عمله ، وكَبتْ به بِطْنَتُهُ .

فما راعني إلاّ والناس كعرف الضبع إليَّ ، ينثالون عليَّ من كل جانب ، حتّى لقد وُطِئَ الحسنان وشُقَّ عِطفاي ، مجتمعين حولي كربيضة الغنم .

فلمّا نهضتُ بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أُخرى ، وقسط آخرون ، كأنّهم لم يسمعوا الله تعالى يقول» : تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَ الْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[1] . «

بلى والله ، لقد سمعوها ودعوها ، ولكنّهم حَلِيَتْ الدنيا في أعينهم ، وراقهم زِبرجُها .

أما والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجّة بوجود الناصر ، وماأخذ الله تعالى على العلماء ألاّ يُقارّوا على كِظَّةِ ظالم ، ولاسَغَبِ مظلوم لألقيتُ حبلها على غاربها ، ولسقيتُ آخرها بكأس أوّلها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز .

قالوا : وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته ، فناوله كتابا ، فأقبل ينظر فيه ، فلمّا فرغ من قراءته ، قال ابن عباس ـ رحمة الله عليه ـ : يا أمير المؤمنين لو اطَّردتْ مقالتك من حيث أفضيت !

فقال : هيهات !يابن عباس ، تلك شقشقة هَدَرَت ثمّ قَرَّت .

قال ابن عباس : فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام ألاّ يكون أمير المؤمنين بلغ منه حيث أراد[2] .

.1سورة القصص ، الآية ٨٣.

.2منهاج البراعة ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، قال : عن الشيخ أبي نصر الحسن بن محمّد بن إبراهيم اليونارتي ، عن الحاجب أبي الوفا محمّد بن بديع وأبي الحسين أحمد بن عبد الرحمان الذكواني ، عن الحافظ أبي بكر بن مردويه الإصفهاني . ... ورواها ابن الجوزي في تذكرة الخواص) ص ١١٧ ، (قال : خطبة اُخرى تعرف بالشقشقيّة ، ذكر بعضها صاحب نهج البلاغة وأخلّ بالبعض ، وقد أتيت بها مستوفاة : أخبرنا بها شيخنا أبو القاسم النفيس الأنباري بإسناده عن ابن عباس قال : لمّا بويع أمير المؤمنين بالخلافة ناداه رجل من الصف وهو على المنبر : ما الّذي أبطأ بك إلى الآن ؟ فقال. بديها.» : أما والله ، لقد تقمّصها فلان وهو يعلم أن محلّي منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عنّي السيل ، ولايرقى إليّ الطير «. . . إلى آخر الخطبة . قال العلاّمة المجلسي رحمه الله في البحار) ج ٢٩ ، ص ٥٠٦ : (رواها] أي : الشقشقيّة[ابن الجوزي في مناقبه ، وابن عبد ربه في الجزء الرابع من العقد الفريد ، وأبو عليّ الجبائي في كتابه ، وابن الخشاب في درسه. على ماحكاه بعض الأصحاب . . والحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري في كتاب المواعظ والزواجر. على ما ذكره صاحب الطرائف . . وفسر ابن الأثير في النهاية لفظ الشقشقة ، ثمّ قال : ومنه حديث عليّ عليه السلام في خطبة له» : تلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت . «وشرح كثيرا من ألفاظها وقال الفيروزآبادي في القاموس. عند تفسيرها. : والخطبة الشقشقيّة العلويّة لقوله لابن عبّاس : هيهات ! تلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت . أقول : وقد حذفتها الأيدي الأمينة على أسفار الدين والأدب من طبعات العقد الفريد اللاحقة ! وإليه تعالى المشتكى.

الخطبة الشقشقية

أمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابن أبي قحافة وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْباً حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ فَأَدْلَى بِهَا إِلَى ابن الخطاب بَعْدَهُ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْشَى :

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا ...وَ يَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَباً بَيْنَمَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا وَيَخْشُنُ مَسُّهَا وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا وَالِاعْتِذَارُ مِنْهَا فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللَّهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ، حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَهَنٍ

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ وَشُقَّ عِطْفَايَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً

وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا، أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَىَ الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ .

قَالُوا وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ فَنَاوَلَهُ كِتَاباً قِيلَ إِنَّ فِيهِ مَسَائِلَ كَانَ يُرِيدُ الْإِجَابَةَ عَنْهَا فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ فِيهِ) فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَتِهِ (قَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ :يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ) ع (لَوِ اطَّرَدَتْ خُطْبَتُكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ فَقَالَ :هَيْهَاتَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَوَاللَّهِ مَا أَسَفْتُ عَلَى كَلَامٍ قَطُّ كَأَسَفِي عَلَى هَذَا الْكَلَامِ أَلَّا يَكُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ) ع (بَلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ.[١]